طبقات ود ضيف الله من أشهر المخطوطات السودانية

ودورها في تؤثيق تاريخ السودان في العصر الوسيط

د.الهام معتصم البشير بانقا

جامعة الخرطوم ، السودان

الجامعة الإسلامية بمنسوتا فرع السنغال

الايميل: elhamabashir@gmail.com

الملخص:

تعد المخطوطات ثروة فكرية و ثقافية ضخمة في التراث العربي الإسلامي، فهي تسهم في عكس حياة المجتمع، ورسم ملامحه بعكس الخلفية الاجتماعية والأقتصادية والسياسية والدينية للمجتمع الذي نشأت فيه ، فهي تستخدم كمصدر للمعلومات فلها مكانتها ووضعيتها المميزة لذا جاءت كتابة هذه الدراسة في كتاب طبقات ود ضيف الله الذي يعتبر من أشهر المخطوطات السودانية في العصر الوسيط، والإشارة الى دوره في إثراء التراث الثقافي السوداني، والتؤثيق لحياة المجمتع ، كما هدفت الى كشف النقاب عن هذه الفترة المهمة من تاريخ السودان باعبتارها جزءاً من تراث الأمة الإفروعربية .منهجية الدراسة جُمعت المادة التاريخية الأولية من المصادر التاريخية ثم خضعت للوصف والتحليل لفهم الحقائق وتحريرها. ومن أهم ما توصلت إليه الدراسة أن كتاب طبقات ود ضيف فضل نال عظيم الفضل كأول مصدر سوداني يؤرخ لتاريخ السودان الوسيط، ان مادة الكتاب اتسمت بالموضوعية حيت كانت نتاجاً طبيعياً للتفاعل الأجتماعي والسياسي والديني في السودان الذي تشكلت منه التغيرات الثقافية والدينية التي بلورة الهوية الوطنية، يمثل الكتاب ثروة فكرية لا يمكن لأي باحث في تاريخ السودان في العصر الوسيط تجاهله. كما انه يعتبر وثيقة تاريخية مهمة لابد من دراستها و العناية بها بصورة جيدة حتى نتمكن من معرفة ما تحمله من موضوعات في حياة الأولياء والصالحين وكراماتهم.

تمهيد:

شهد تاريخ السودان في العصر الوسيط ابرز مظاهر الانتاج الثقافي والديني كما تبرز في نفس الوقت حالة الندرة للمعلومات والمادة التاريخية المكتوبة . وفي حالة توفر جزء منها تبرز مشكلة اتساع الفراغات والمساحات التي تبقى عائقاً أمام الباحث في تاريخ السودان لاستكمال الصورة الصحيحة التي وضعها لموضوع الدراسة في هذا السياق تأتي الدراسة المخطوطة وكتابها، والظروف التي كتبت فيها، والأحداث التي تناولها. والمنهج المستخدم فيها.

كلمات مفتاحية:

طبقات ود ضيف الله، التراث، الثقافة المجتمع ، السودان ، العصر الوسيط

1- المقدمة:

يعد كتاب الطبقات أقدم مصدر سوداني معروف حتى الآن يتحدث عن تاريخ السودان في العصر الوسيط لان مؤلفه محمد ضيف الله بن محمد الجعلي الفضلي(1224هـ) كان معاصر لجزء من مشيخة العبدلاب،تم تحقيق الكتاب في ثلاث طبعات الأولى لسليمان داود منديل الثانية لابراهيم صديق احمد القاضي ،1930، الثالثة ليوسف فضل الذي طبعه ثلاث مرات.في ظاهره تراجم الرجال الأولياء والعلماء والصالحين الا أنه قّدم فائدة كبيرة للكتاب والمولفين والنقاد فقد كشف عن التوثيق السياقي لحكايات الأولياء المسلمين وكرامتهم كشكل من اشكال الحكاية الشعبية القصيرة في السودان في فترة من 1504–1821م فقد نقلها من الرويات الشفاهية التداول الى مادة مكتوبة عكست بساطة المجتمع الذي تقبل الطرق الصوفية التي دخلت بعد انتشار الإسلام من بغداد، وتعامل معها بل سلك طريقها عدد كبير من السودانين فاستطاعوا تأسيس خلاوي وزوايا لتعليم المريدين. الذين كانوا مادة كتاب ودضيف الله .مما يؤخذ على المخطوطة تأثره بالعقلية السائدة في زمانه مما جعل كتابه يزخر بالخرافات لايستسيغها الفكر القويم فقد اقحم في المخطوطة الكثير من خوارق العادات باعتبارها كرامات للأولياء الذين ترجم لهم ومع هذا كتاب لا يستغني عنه باحث في تاريخ السودان[1].

2–**أهمية الدراسة** : تاتي أهمية الدراسة في أنها غنية بالمعلومات التاريخية والثقافية التي عكست حياة العالم والفقيه والأولياء والصالحين في هذه الحقبة التاريخية . وأنها أول كتاب يوثق لتاريخ السودان الأجتماعي والسياسي في الفترة من 1504–1821م، ارتباط كتاب الطبقات بتاريخ السودان الوسيط في فترة من أكثر فترات تاريخ السودان غموضاً حيث تقل فيها المصادر والمراجع التي توثق لهذه الفترة .

3–أشكالية الدراسة: جاءت أشكالية الدراسة في الأتى الى أي مدى ساهمت مخطوطة طبقات ود ضيف الله في عكس صورة المجتمع السوداني في العصر الوسيط. وهل وفقت في هذا.

4–منهجية الدراسة : استخدمت الدراسة المنهج التاريخي الوصفي والتحليلي، فقد جُمعت المادة التاريخية الأولية من المصادر التاريخية ثم خضعت للوصف والتحليل لفهم الحقائق وتحريرها.كما توصلت إليه الدراسة.

المحور الأول: يعتبر كتاب الطبقات من المخطوطات اي مؤلفات العلماء ومصنفاتهم، ولفظ مخطوطة لفظ محدث جاء بعد حدوث الطباعة، ، فأصبحت الكتب قسمين: مخطوطات، ومطبوعات. فما كان منها مكتوبًا بخط اليد سُمي مخطوطًا، وما طُبع منها سُمي مطبوعًا، تمييزًا له عن الأول لذا حاولنا تعريف المخطوطة حتى يدرك الباحث قيمته وأهميته القيمة في التاريخ الأفريقي بصفة عامة وتاريخ السودان بصفة خاصة.

1–تعريف المخطوط: علم المخطوطات هو علم مكتوب في الهوامش من شروح وتصحيحات او معلومات عن الأشخاص الذين تملكوه ان نسخوه او قرأوه او استعملوه ... ثم العناصر المادية المتعلقة بصناعة المخطوط من ترتيب وترقيم ثم تاريخ المجموعات ووضع قوائم وفهارس لها او لغيرها[2]. فعلم المخطوطات مجال تاريخي قيمته الأساسية تكمن في العناصر التاريخية و الثقافية للمنطقة يقول بعض الكّتاب ان علم المخطوطات يهتم باظهار شروط الأنتاج الأولي لكتاب مصنوع بطريقة تقليدية[3] . فالمخطوط كتاب يعود تأليفه إلى أزمنة قديمة ولم يقع إخراجة إلا في الوقت الحاضر حيث يقوم بتحقيقه محقق واحد او عدد من المحققين وربما يعاد تحقيقه أكثر من مرة[4]. قال تعالى:(وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ)[5] . فنجد كتاب طبقات ود ضيف الله تم تحقيقه من عدد من المحقيق أكثر من عشر مرات كما تبيّن . فهنالك مجموعة من العلماء والنقاد السودانين ينادون بتحقيقه مرة اخرى ويجددون النداء للبروفسير يوسف فضل لاعادة تحقيقه وتدقيقه مرة اخرى.!. فالكتاب يعتبر من أمهات كتب التراث والمرجع الاول المطبوع لدارسى التصوف فى السودان.

1–تعريف ود ضيف الله :

1–المولد والنشأة:

1– 1–**المولد:** وُلد محمد نور بن ضيف الله بن محمد ضيف الله بن علي الجعلي، كما ذُكر على مقدمة كتابه الطبقات في مدينة حلفاية الملوك عام 1139 هجريًا الموافق 1726م ميلاديً، وتوفي بعد كتابة كتابه الطبقات بأربع سنوات عام(1224–1809–1810م) [6]، اي قبل الفتح التركي المصري بعشر سنوات. ينتمي الى بيت الضفيلاب التي تنتسب الى أسرة الكواهلة فهي من أكثر الأسر المعروفة ومشهورة بعملها ومعرفتها بعلوم الدين والثقافة الإسلامية، كما ينتسب لعائلة الفاضلاب الذين هم بطن من بطون قبيلة الجعليين التي

كانت مستقرة بمنطقة ام الطيور التي تقع قرب مدينة الدامر الواقعة على نهر النيل ثم انتقلت منها الى منطقة حلفاية الملوك، المتواتر عن عائلة الضيفلاب معرفتهم بالصلاح والعلم فقد هاجروا الى مدينة الحلفاية منذ زمن بعيد عن الطريق التجاري (درب الجمل) الذي كان يربط بين الحلفاية و الدامر – و وكانا هاتان المدينتان هما مركزان تجاريان في فترة العصر الوسيط _ الامر الذي شجع على حرية الحركة والأستقرار .

1-2النشأة : عاشت اسرة محمد ود ضيف الله في حلفاية الملوك في كنف أسرة دينية حيث كان والده فقيهًا ورعًا ومتصوفًا، حافظاً لقرآن عن أبيه، و متوفقهاً في علم القرآن والسير و العقائد فاخذ طريق الصوفية من عائلته ونبغ في الفقه المالكي وتفوق فيه على أقرانه فقد كان محل اجماع الأمة الأمر الذي أهله لتصدي للافتاء لتولي القضاء القائم على أحكام الشريعة الإسلامية في دولة الفونج [7].كما كانت لوالده إساهماته العلمية والدينية في المجتمع السوداني ، فكان قد وضع حاشية لكتاب مختصر خليل، كما تذكر المصادر أنه سلك طريق التصوف على النهج (القادري، الشاذلي) مثل الشيخ خوجلي عبد الرحمن، وكان ملمًا بمسائل الفقه والتصوف ومعلمًا لهما. كما له باع في شؤون الإفتاء ، وتذكر المصادر أنَّ ابنه محمد نور قد سار على نهج والده ومشربه التصوفي، فقد عُرف كوالده قاضياً وفقيهاً ومتصوفاً، له أحكامه المشهورة في العديد من المسائل والنزاعات بين مختلف الأطراف آنذاك في مسائل الميراث والتوريث والأطيان فقد بلغ درجةعالية في الفقه، وصار حجةً في المذهب المالكي. مثل جده ضيف الله بن علي الذي كان أول من درس الفقه بجامع الحلفايا شمال
الخرطوم[8].

كانت الخلافة تورث عند الضيفلاب بين
(أولاد ضيف الله) فقد برهن هذا قول والده له بحياته عبارة :(إذا مُت صل عليَّ) أي تولَّ خلافتي. لكن لم يورث محمد غيره من الابناء او الأخوان، وقد وصفه صاحب كتاب (الشونة) بأنه صاحب المذهب والشريعة، شيخ الإسلام فريد عصره فقد افتتح الحركة العلمية لكتابة تراجم العلماء ورجال الدين من أهل البلاد خاصة الذين سكنوا إقليم الجزيرة والمنطقة الشمالية القريبة من الخرطوم[9].ساهم اخوه الشيخ دفع الله في نشر العلم والمعرفة في مدينة الحلفاية لمدة عشر سنوات كان عالماً بلغت شهرته كل انحاء المعمورة حتى عرفت الحلفاية باسمة بحلفاية دفع الله هذا يشير الى أسرة ودضيف الله ودورها في نشر العلم والمعرفة.

1-3- مكان نشأة ود ضيف الله

نشأة اسرة الضيفلاب في مدينة حلفاية الملوك اي في فترة الحكم السناري حيث كانت هذه المدينة صاحبة تاريخ زاهر في مشيخة العبدلاب حيث تزخر بالعلم والعلماء فمن بينهم اسرة الضيفلاب فقد جاء في الطبقات عند ترجمة الشيخ يعقوب بن مجلي المشيخي ما نصه (وكان صاحب ولاية عظمى ، حتى اختلف رجلان عند والي الحلفاية)[10] هذا يشير الى مكانة الحلفاية في تلك الفترة التاريخية.حيث اشتهرت بالعلم والتصوف و مكانتها السياسية والدينية والأجتماعية.

1-4- واقع المجتمع من خلال رؤية كاتب الطبقات

كان ما يحدث في مجتمع حلفاية الملوك نموذجاً رائعا لما حدث في كل أنحاء السودان خلال القرون المتطاولة من تلاقح العناصر، وتمازج الثقافات وانصهارها في بوتقة الوحدة الوطنية التي صاغت الشخصية السودانية صياغة فريدة، يرفد فيها تنوع عنصر وحدة الأمة وتكوين التعددية الأثنية الذي ساهم في إثراء الجماعات والتمايز بينها وقد تم ذلك في ازمان طويلة متباعدة تداخلت فيها الدماء، وتشابكت الأرحام والأعراق، واندمجت الفوارق مع الزمن بين دخيل واصيل وخرج الى الوجود تكوين عنصر دموي جديد يحمل في أعماقه حرارة هذا الأنصهار بين العناصر البشرية التي التقت في بوتقة السودان الحضارية[11]. كان المجتمع السوداني يضم ثقافات متعددة محلية واقليمية وعربية وافدة عن طريق الشمال والغرب والشرق فقد انتشرت بعد ظهور الإسلام الأمر الذي ساعد على نشر الثقافة الدينية ووسع دائرة المعرفة ونقل الناس من الجهل الى العلم .

فقد شجع الكاتب على الدراسة والتأليف موقع السودان الاستراتيجي الغني عن البيان وما نتج عنه من حركة وتمازج بين العناصر البشرية المحلية والقادمة بالأضافة الى أتصاله بمعظم مراكز الأشعاع الحضاري في العالم القديم ، والنأى به ذات الوقت عن التعرض المباشر لموجات الغزو الأجنبي التي كثيراً ما أقلقت حياة شعوب العالم القديم كل هذه العوامل كانت مصدر لحركة التصوف والمتصوفة في السودان في عهد دولة الفونج والفترة التي قبلها والفترة التي بعدها فقد ذكر في كتابه الأولياء قراء القرآن وما يتصل بهم من الحوادث والأخبار ووضح لنا جوانب كثيرة عن المتصوفة وحياتهم وطرقهم، وكذلك حركة العلم والمدارس ومنشئيها وما

درسوا فيها ومن تتلمذوا على كل شيخ في كل مدرسة وكما أبرز لنا صورة للحياة العقلية بصفة عامة والحياة الفكرية بصفة خاصة[12]

استفاد ود ضيف الله من العلماء الذين قدموا للسودان عن طريق الشمال والبحر الأحمر وإنسياب عناصر البشر منذ القِدم في ارجائه من غرب وشمال وشرق وجنوب والتقاء الوان الأفكار في رحبته وامتزاجها في نقاط التجمع الحضاري في وسطه حول نهر النيل فقد تلاقحت مع العناصر المحلية فاصبح المجتمع نوعاً ما متماسكاً مترابط بفضل هذه البوتقة التي كان له أعظم الأثر في خلق وضع بشري وحضاري فريد ترسب على الزمن في وجدان البشر وعقولهم مضيفا الى حياتهم سمات إنسانية محددة تبلورت في شخصية حضارية مميزة للوطن وللمواطن في السودان[13] قد اكسبها حيث ارتاد ود ضيف الله بطبقاته الزاخرة اخبار الرجال ميدانا علمياً فسيحا تتقاصر دونه هامات الرجال ضارباً.اورع الأمثال في كتابه اشعار التاريخ البشري وتوثيق لأحداثهم وانسابنهم وطرقهم الدينية في السودان.

المحور الثاني:

يعتبر كتاب الطبقات من الكتب النادر التي وثقت لتاريخ السودان الاجتماعي والاقتصادي والسياسي في فترة التاريخ الوسيط تلك الفترة التي شهدت حراكاً اجتماعياً كبيراً من الخارج والداخل ،ومع ذلك غلبت الندرة في الكتابة فعلى الرغم من هذا تمت كتابة كتاب الطبقات .

2-1-نبذة عن الكتاب: يُعد كتاب الطبقات المعروف شعبياً بطبقات ود ضيف الله من أمهات الكتب العربية، ومن أشهر كتب التراث السوداني، والمرجع الأول المطبوع لدارسي التصوف وحياة المجتمع في السودان ، كما يعد الكتاب أيضاً من المصادر الأولية المهمة في تاريخ سلطنة الفونج ووضعها السياسي فهو يذكر السلاطين والوزراء وولاة الولايات وما يتصل بمراكزهم ومناطقهم كما وردت بين ثناياه العديد من الإشارات التي تبين حياة التصوف والسلوك الاجتماعي في الدولة، ومكانة الأولياء والمتصوفة في الحياة المجتمعية. وهو يتناول فترة من أخصب فترات التاريخ بالسودان، حيث أرخ فيه للأسس المبكرة للفقه وخلاوى القرآن وطريقة التعليم والتدريب فيها باعتبارها من أول المدارس الجامعة التي تجمع ابناء من جميع أنحاء البلاد في مناطق، ولولا طبقات ود ضيف الله لكان تاريخ السودان في طيات الغيب. ومما يلفت النظر ويستدعي اهتمام الباحثين والمؤرخين، إن الشيخ محمد نور ضيف الله قد خط يراعه في هذا السفر العظيم كتاب الطبقات، في زمن قل فيه العلم رغم مشقة الأسفار وحواجز الطبيعة، وبدائية الوسائل التعليمية، مما يُعد مفخرة لفقهاء الأمة والعلماء والباحثين.

يعد أقدم كتاب متاح في تاريخ السودان فهو يعطينا معلومات تاريخية في نشأة مملكة الفونج ورعايتها لبعض العلماء والمتصوفة الأوائل ويحتوي القسم الثالث والرئيسي على تراجم لعدد كبير جداً من العلماء و الفقهاء والشيوخ الطرق الصوفية وبعض الملوك والمشائخ والقضاة والشعراء في عهد دولة الفونج (1504–1820)[14] فهؤلاء كانوا يمثلون رموز المجتمع السناري حيث تلقوا تعاليمهم على يد العلماء الذين قدموا من المغرب والحجاز ومصر واليمن في وقت كان التعليم نادراً حيث قاموا بتعليم السودانين علوم الدين والفقه والقضاء والثقافة الإسلامية في تلك الفترة.

2 –2 **أسلوب الكتاب** :اما الاسلوب الذي كتب به الطبقات يعد نموذجاً لاسلوب ذلك العصر الذي يندرج بين بين الفصحى والعامية وهو أسلوب الكتابة في ذلك العصر الذي ورث عن نظام التعليم في خلاوي القرآن ومدارس العلم ومراكز الصوفية، فيه عرض لعدد من النصوص وخاصة من الشعر والإجازات العلمية والصوفية وذكر لمجموعة من الكتب التي وضعها السودانيون الى عهد المؤلف وجملة الكتب التي كانت تتداولها الأيدي كما يعطينا بيانات عن النظم الأدارية والاجتماعية والسياسية والدينية فيذكر العادات والتقاليد والأعراف بين الطوائف، ويذكر الأدوات التي استعملها الناس في بيوتهم وحقولهم وفي مراعيهم وفي مجال العلم والتصوف[15] والكتاب مهما اختلف أو اتفق معه قارئه فهو يعطي صورة لكثير من جوانب الحياة الروحية و الفكرية و المادية لفترة تقارب الخمسمائة عام – أي لفترة تمتد من التاريخ أعلاه إلي ما قبل قيام دولة الفونج(السلطنة الزرقاء) .

2– 3–**لغة الكتاب:** تنوعت لغةالكتاب بين العامية والفصحى إذ راعي المؤلف في تأليف الكتاب الفروق الفردية في المستوى التعليمي للمجتمع السوداني مع قلته، وان انتشار الاسلام تم في فترة قريبة لذا أن اللهجة العامية لا تتغير بين عشية وضحاها، تحدث الكاتب عن غلبة النثر الشعبي على النثر الفصيح في عصر الفونج الذي يغلب فيه حتى يندر ان نجد نماذج مطولة من النثر العربي الفصيح، وآثار اللغة العامية تظهر في القطع النثرية بصورة واضحة فقد تمزج اللغة الفصحي بالدارجية احياناً كثيرة (كما يظهر ذلك من ترجمة ود عدلان) .أيضاً مفردات لغة الكتاب فيها بعض الكلمات و العبارات التي تعتبر اليوم غريبة أو غير معروفة فربما يدل على تواجد أفراد افريقية من دول الجوار في المجتمع : لاحظ في ترجمة ود عدلان عبارات مثل (جزيرة الفونج ، دار برنو) و في ترجمة الشيخ بانقا الضرير(جد اليعقوباب) يقول المؤلف :(بان النقا الضرير الفضلي الوثيقي

إسمه محمد و أمه سودانية ، فإن سندال العاج كبير الفونج أخوه لأمه .. إنتهي) . لكن بتغير الزمن و تغير الأحداث تغيرت هذه المصطلحات الآن[16]. .

فقد صور لنا لغة المجتمع السوداني ، وتشكليته الأجتماعية والثقافية والمستوى التعليمي للأفراد الذين تعامل معهم من خلال جميع المعطيات التي توفرت لديه اي عن طريق الاتصالات الفردية والجماعية التي تمت عن طريق المقابلات وان العامية كانت اللغة المتداولة كما برز في الكتاب، ومن بعض الأشخاص الذين تمت مقابلتهم من الأسر فكانت هذه المقابلات تتم للحصول على المعلومة الشفهية باللغة المشاعة، وتوثيقها فمن بين هؤلاء الشعراء والعلماء والفقهاء من بيئات سودانية مختلفة ومناطق متعددة لكل منها سلوكياته الفكرية ولهجاته،كما تبين لنا من الكتاب فقد سرد الكاتب في رواية تم ثوثيقها ان احد العلماء الأولياء نزل عليه الفيض الألهي وانكره العامة ورموه بالكذب فارسل الى شيخه عيسى بن سوار الذهب يشكوا إليه فكتب الذي يسليه من ابيات :

والله لو كان بين الناس جبريلا **** * لأبد فيه من قـــال ومن قيلا

قالوا في الله أضعاف مضاعفة ***** تتلى اذا رتل الـــقرآن ترتيلاً

قـــالوا بل له ابن وصاحبة ***** أثما وزورا وبهتانا وتضــليلا

انظر كلامهم في الله خالقه ***** فكيف فينا إذا قيل ما قيلا[17]

واضح من خلال هذه الأبيات حياة المجتمع السوداني، وان الشعر مرتبط بالدين والخلق، كما نجد اثر الشعر في نفوس الأفراد، فانتقال النثر الشعبي الى النثر الفصيح يشير الى اللغة ، وان المؤلف وطايفة العلماء والفقهاء كانوا ملمين بالعربية الفصحى فقد جمعت هذه الأبيات الموازنة بين بين الوزن والقافية واشارت هذه الأبيات

على وجود ظاهرة في المجتمع فهي الوشاية لذا تعامل معها الشاعر باعتبارها ظاهرة عادية لأبد من عدم الاكتراث لها والأهتمام بها لذا صاغ هذه الأبيات التوجيهية التي تجمع فيها الكثير من المعاني والدلالات بحيث يستطيع الكثير من الاستفادة منها وتذوق معانيها واستخراج من طياتها معلومات

عن حال الناس في ذلك الوقت فقدم فيها للاجيال المقبلة لغة التخاطب في عصره[18]،

استخدمت في هذه القصيدة كلمات عربية فصحى فقد تشير الى تعليم المؤلف الذي اعتمد فيه على كتاب الله تعالي، ومختصر الخليل ولا يفوتنا في هذا المجال ان والده من وضع الحواشي في المختصر، يعني وجود اللغة العامية في الكتاب فربما لسببين : أولهما أن يجعل الكتاب مناسباً مع عقليات الناس في ذلك العصر بحيث يستطيع الكثير منهم ان يستسيغ معانية، ويتذوق مراميه والثانية ان يقدم للأجيال المقبلة نبذة عن لغة التخاطب في عصر المؤلف ليستخلصوا من طيات كلماتها معلومات عن حال الناس في ذلك الوقت. وباحث اخر يروي أن مقدمة الكتاب تدل على أن له باعاً طويلاً في الكتابة والإنشاء العربي الفصيح وقد يشير الى هذا مطلب أصحابه بالتأليف والكتابة لملك السودان، والبعض الآخر يرى انه كتب الكتاب بالعامية على سبيل التملح والفكاهة ومهما يكن فأن كتابة المؤلف بالدارجة تحمل الدليل على ان القراء او كثيراً منهم في ذلك الحين لم تكن لديهم الوسائل الكافية او الميل لتفهم العربية الفصحى والأقبال عليها.[19]

2-4 تراجم الكتاب بلغت عدد التراجم الكتاب في تحقيق يوسف فضل 270 ترجمة، وفي رواية مكمايكل 259 ترجمة تتفاوت تراجمهم بين الطول والقصر، شملت هذه التراجم بيئات مختلفة من بلاد السودان، وثقافات متنوعة كل شخصية فيه عكست صفات وملامح وثقافة المنطقة التي عاشت فيها، فمن الواضح في تناول هذه الشخصيات قد تأثر المؤلف في تأليفه بالشعراني في الطبقات الكبرى، وبالسبكي في طبقات الشافعية وبالسيوطي، وقد اقتدى في توثيقه بجماعة من المحدثين والفقهاء والمؤرخين، وقد بيّن أن تأليفه لهذه الكتاب بدعوة من أصحابه الذين طلبوا منه أن يؤرخ لهم "لملك السودان", وان يذكر مناقب ولياته الأعيان.

نلاحظ أن الغالبية العظمى من التراجم اعتمد ود ضيف الله فيها كما يقول محقق الكتاب على الروايات الشفوية والمصادر الخطية[20]، والغالبية العظمى من الأعلام ممن عاشوا في الجزء الشمالي من الجزيرة وفي

شمال النيل الأزرق ثم المنطقة الممتدة بين الخرطوم ودنقلا والقليل منهم يأتون من منطقة النيل وشرق السودان وأقل من ذلك يأتون من غرب السودان وهؤلاء لا يذكرون إلا اضطرادا لمناسبات تبدأ من جهات النيل،

تعرض المؤلف كتاب الطبقات للأخبار المتواترة عند العلماء الخاصة وبعض العامة في علم الأنساب والفقه والروايات المخزونة عن كرامات الأولياء والصالحين التي عكست مدة تغلغل الحكايات الشعبية في المجتمع السوداني حيث تحصل عليها من خلال السرد الروائي اي الرويات الشفهية فهذه الرويات تشير الى مدى تشتت المجتمع السوداني من الناحية الأجتماعية إذ نجده عبارة عن قبائل متفرقة تسكن في المناطق النيلية فربما حاولت كل قبيلة الاحتفاظ بوحدتها وعادتها وتقاليدها لذا أصبح لا رابط يجمع بينها وبين غيرها من الناحية الاجتماعية و من الناحية السياسية سواء مشيخة العبدلاب أما من الناحية الدينية فقد ساهمت الطرق الصوفية في تشكيلة المجتمع عن طريق الخلاوي والزوايا بجمع أبناء من مختلف القبائل، وتعاليم وتوعيتهم الأمر الذي ساعد على صهرهم في مجتمع واحد بمرور الزمن فبرغم من دخول الإسلام عن طريق الشمال والشرق ونشره إلا ان معظم أهله كانت تنقصهم المعرفة التامة بالدين وباحكامه والثقافة الإسلامية عليه فالظروف التي عاشها المجتمع شكلت ثقافة المجتمع .

اشار الكتاب الى علماء الذين قدموا الى السودان من الدول الأفريقية والعربية، ولعبوا دوراً بارزاً في نشر الدعوة الإسلامية واللغة العربية مثل الشيخ تاج الدين البهاري من بغداد الذي ادخل الطريقة الصوفيه ثم التلمساني المغربي من بلاد المغرب الذي نشر علم الكلام و علم القرآن في السودان وابراهيم بولاد الذي قدم من مصر والذي درس مختصر الخليل والرسالة[21] كما وضع مقارنه بين ثقافة المجتمع قبل انتشار الإسلام وبعده حيث ذكر ان الرجل كان يطلق المرأة ويتزوجها غيره في نفس اليوم من غير عدة [22]،وعلل ذلك الى عدم معرفة الناس بالدين الإسلامي، والثقافة الإسلامية وعدم انتشار المدارس والخلاوي لتعليم الناس فقدكان لهؤلا العلماء دور كبير في نقل المجتمع السوداني من حالة الجهالة الى المعرفة والعلم والتفقه في كتاب الله بدليل انتشار الخلاوي والزوايا وممارسة العلماء للعملية التعليمية .

اقتدى ودضيف الله في بعض المسائل الفقية بالعلماء والفقهاء والمؤرخين الذين كان لهم باع في العلم والذين الفوا في الفقه والمناقب والتاريخ وكان من بين هؤلاء العلماء عبد الغافر الفارسي في تاريخ نيسابور والجلال

السيوطي في كتاب "حسن المحاضرة في اخبار مصر والقاهرة "والحافظ بن حجر العسقلاني في كتابي "فتح الباري في شرح البخاري" وكتاب "الدرر الكامنة في أعيان الماية الثامنة" وأحمد المقري في كتاب "نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب" هذا يشير الى ان هذه الكتب قد وصلت مملكة الفونج– التي كانت تدعوا العلماء والفقهاء لزيارة السودان–، وان العلماء حاولوا الأطلاع عليها ومدراستها ، والإستفادة من علمها كما يشير الى تقدم النهضة العلمية في المجتمع السوداني الى حد، ونقله من حالة الجهالة الى الوعي والتقدم في الفكر والمعرفة وو التغيير في مفاهيم وسلوكات افراده . لكن السؤال الذي يتبادر الى الذهن ما الذي أراده محمد ود ضيف الله عند رجوعه الى مؤلفات العلماء والمؤرخين في بعض المسائل الفقهية التي تشكل عليه . لقد تبين لنا من خلال متابعة مؤلفه المعروف بالطبقات اعتبر هذه الكتب وغيرها مرجعية في الحصول على المعلومات الصحيحة المؤثقة بالأضافة الى انها تشير الى ان الأفتاء لا يتم بصورة عبثية انما يتم وفق الرجوع الى المصادر والمراجع المؤثقة هذا يشير الى علمه وفقه بالثقافة الدينية[23].

تحدث المؤلف عن النظام السياسي لملك الفونج و امتداد حدودهم حيث أشار الى أن حدودهم امتدت حتى بلاد النوبة التي تغلبوا عليها عام 910م، وتم تخطيطها كما تم تخطيط مدينة سنار بقيادة عمارة دنفس وتخطيط مدينة اربجي، ومدينة الحلفاية هذا يشير الى بداية ظهور الوعي القومي وتنظم حياة المدن في ظل مملكة العبدلاب كما يشير على تمكن الكتاب من حصوله على المعلومة وادراكه الى أهميتها في تلك الفترة خاصة انه على علم تام بقضايا الميراث والأراضي ومشاكلها[24].

المحور الثالث:

تعتبر هذه الفترة من الفترات المهمة في تاريخ السودان لأنها شهدت بداية انتشار التعليم في السودان الذي تم على يد الأولياء والصالحين في الخلاوي والمساجد فقد ساعد هذاعلى خروج السودان من عزلته وتجميع ابناء القبائل في الخلاوي تحت شعار واحد وحدة الأمة الاسلامية فساهم في تغير المجتمع وربطه بمناطق العلم في الأزهر والحجاز وغيرها كل هذه الموضوعات تم رصدها في الطبقات[25].

3–1 تدوين التعليم الصوفي في الطبقات:

يعتبر كتاب الطبقات هو أهم مصدر لحركة التصوف في السودان فهو يذكر الأولياء، وما يتصل بهم من الحوادث والأخبار وكرامات، فقد وضح لنا جوانب كثيرة عن التصوف وعن حياة المتصوفة ونظمهم وهو يتحدث عن العلم إذ ذكر مدارس العلم ومنشئوها ومن درسوا فيها وتلميذهم فهذه الموضوعات والأخبار تيشير الى صورة الحياة العقلية بصفة عامة والحياة الفكرية بصفة خاصة[26] فقد كانت السمة المميزة لعصر الوسيط في السودان الاعتقاد في الأولياء والصالحين فقد ارتبط الكاتب بالمجتمع بمختلف طبقاته من خلال تعريفاته[27] لذا تمكن من عكس صورة الحياة فيه من خلال سرده لزعماء الطرق الصوفية وكرامتهم التي خرجت عن الأطار المالوف للعادات السودانية المتبعة في تلك الفترة ،فلم يكن الاعتقاد في الأولياء وفق عامة الناس فقد تعدى الطبقة البسيطة الى الطبقة الحاكمة اي الملوك والسلاطين الذين كانوا لا يشرعون في عمل هام إلا بعد مشورة الأولياء كما فعل الشيخ عجيب عندما عزم على حرب الفونج فنهاه الشيخ ادريس ود الأرباب فشار إليه انهم سينتصرون عليه وسيسودون ذريته الى يوم القيامة[28].

تحدث الكاتب عن قلة التعليم فقد أشار الى الجهل والتخلف الذي كان يسود المجتمع السوداني وندرة المدارس فاشار الى ذلك بقوله لم تشتهر في تلك البلاد مدرسة علم ولا قرآن [29] فقد كانت بداية ظهور بوادر التعليم على يد محمود العركي والشيخ بولاد فهم من ادخلوا التعليم في السودان ثم بدأ دخول الطرق الصوفية على يد تاج الدين البهاري في دار الفونج التي من خلالها انتشر علم التوحيد والتجويد والنحو لكن كانت أول الطرق التي دخلت السودان الطريقة الشاذلية التي دخلت قبل سقوط علوة المسيحية وكان شيخها أحمد ابو دنانة الذي استقر في منطقة بربر 1445م. من اهم المميزات التي تميزت بها الطرق الصوفية كانت لها دلالاتها وابعادها الدينية والأجتماعية والسياسية في المجتمع السوداني حيث كانت ترتبط بها قصص الأولياء والصالحين وتجمع حولها جميع اطياف المجتمع وان معظم رجال الطرق الصوفية الذين قدموا الى السودان بدعوة من ملوك الفونج(1505–1821م[30].

انتشرت العلوم الدينية في عهد الكاتب ود ضيف الله منها علم العقائد (علم الكلام) وعلم الميراث وعلوم الفرائض فتناول كتاب الطبقات العلماء الذين قاموا بتدريسها، وركز على عنايتهم بالدراسات الإسلامية والعربية والتي قام بها أجل اساتذة الأزهر وبلاد الحجاز ، وتمبكتوا او تلمسان فقد كانت الحركة العلمية بداية لظهور حركة الوعي لبعض السودانين[31]، وتنظيم حياتهم التى كانت تقوم على الكر والفر والصراعات القبلية حول المراعي والأراضي ، فاعتمدت حياة الناس على الرقية الشرعية، والتعاويذ الدينية وقراءات الأحزاب مثل حزب

السيف، وما زالت هذه التقنيات مستخدمة في الوقت الحاضر لقطاع كبير من المجتمعات الأفريقية وحتى مراكز العلاج الحديث المسماء بالعلاج بالقرآن تعتمد على الرقية الشرعية .

يشير غازي صلاح الدين الى إن الكتاب في جملة منحاه انتصار لمشايخ الطريقة على العلماء، برغم أن صاحبه أعلن وقوفه في البداية على مسافة متساوية من الجميع إذ يقول:(وأردت أن أجمع هؤلاء الأعيان في معجم وأذكر العلماء العاملين على حدة، ومشايخ الطريقة، وما يدل من سيرهم وأقوالهم في تعظيمهم للشريعة على حدة» لكن يرى ان الطابع الغالب على الكتاب انه لم يكن محايداً، بل كان صدى للمزاج السائد في المجتمع السوداني الذي يعيش فيه ود ضيف الله تم عكسه من دون التطرق الى الجدل الفقهي يرى ان الكتاب باعتباره سفراً في التأريخ الاجتماعي والنفسي للشخصية السودانية الأوسطية (نسبة إلى السودان الأوسط)، سنستفيد منه في معرفة ما يشكّل مخيلة العامة ويملي تصرفاتهم وانفعالاتهم ويحدد توقعاتهم.. فليس مهماً أن نقرر ما إذا كانت الحوادث المذكورة في الكتاب قد وقعت أو لم تقع، المهم هو أن جانباً كبيراً من المجتمع آمن بأنها وقعت وأجرى حساباته وشكّل تصرفاته بناءً عليها، وبذلك تكوّن لديه عقل وضمير جمعيان يمليان انفعالات أفراده، سواء الصادرة منها من منطقة الوعي أو من منطقة ما دون الوعي في تفكيره،.

ان معظم شخوص الكتاب من السودان الأوسط الذي ازدهر أيام السلطنة الزرقاء ومملكة العبدلاب. وهو الممتد من منطقة دنقلا والدفار والخندق وتخوم المحس شمالاً، وما ينزل منها حوالي نهر النيل جنوباً إلى أن نصل جزيرة الهوي، أو الجزيرة الهوي، غرب النيل الأزرق، وهي المحدودة بالنيلين الأزرق والأبيض عند الخرطوم الحالية وامتداداتها جنوباً؛ ويضم أيضاً جزيرة الفونج إلى حدود الفونج جنوباً حيث قبائل كنانة؛ ويضم جانب البطانة الذي يلي العاديك، أي الضفة الشرقية للنيل الأزرق وامتداداتها التي تشمل جزيرة مروي،أي المنطقة المحصورة بين النيل الأزرق ونهر النيل والأتبراوي؛ كما يضم منطقة بحر أبيض على النيل الأبيض. إن قليلاً من شخوص الكتاب هم من شرق السودان و مناطق كردفان أو من تقلي، فبرغم هذا فانه فإن طرد الاستنتاجات لتشمل سكان تلك المناطق الثلاث جائز لأن العلاقة بينها وبين السودان الأوسط كانت وما زالت قوية. ربما ألمح بعض من كتبوا عن السلطنة الزرقاء وسنار إلى طرف من الآراء الواردة هنا، على الأقل في

ملاحظة النفوذ القوي لثقافة تلك الحقبة على المفاهيم السودانية الأوسطية وسلطانها على الشخصية الخاصة والعامة[32].

3-2الأنتقادات الموجهة الى الكتاب :

وجهت لكتاب ود ضيف الله انتقادات كثيرة من النقاد تنطلق من فرضية مركبة مفادها ان الكتاب لم يعط صورة ايجابية عن واقع التصوف في السودان، وان المؤلف لم يحدد موقفاً داحضاً للروايات الخرافية التي تقدح في صدقية طريق القوم وان المؤلف بنشره للكتاب قد اسهم في الترويج لتلك لترهات القادحة في أهلية بعض رجال الطرق الصوفية وضوء هذه الفرضية جاءت الانتقادات مرتبطة بالشكل والمضمون فمن حيث الشكل يستأنس ان هنالك عدد من النقاد انكروا على ود ضيف الله كتابة الكتاب فمن بينهم احد مشايخ الطرق الصوفية من قبيلة اليعقوباب_حماد زين العابدين، ويشاركه في هذا الزعم احمد خليل احد الضيقلاب[33] ،فقد نفوا تأليف الكتاب لكاتب السوداني ود ضيف الله لأنه لم يترك نسخة مطبوعة أو موقعة باسمه لكن حمور زيادة يرفض هذا الزعم ويتعبره زعماً فطيراً علماً بان كتب الأوائل المطبوعة والمتداولة بين أيدينا الآن لم توجد في نصوص مطبوعة او ممهورة بتوقيعات مؤلفيها وحتى ان وجدنا نسخة موقعة ما الذي يضمن أنه توقيع المؤلف، هنا نطرح تساؤل هل كانت الكتابة منتشرة في تلك الفترة بالطرق الحديثة الآن، وما الذي يضمن صحة التوقيع كما يرى ابوشوك راداً على هذه المزاعم.

شهد على كاتب الشونة بوجود تصوف نفي في السودان بدليل لأنه عاصر ود ضيف الله، ونقل طرفاً من كتابه في مصنفه. اما بالنسبة لمتون الكتاب فقد تكمن الأشكالية الجوهرية فيه انه خالي من المقدمة والحواشي الخاذقة الصنعة فربما يرجع الى فكر الكاتب الذي كان بسيط بالطريقة الكتابة، وكيفيتها خاصة انه أول كتاب سوداني يكتب في تلك الفترة او ربما تأثر الكاتب بغيره من الكتّاب والمؤلفين القدماء في نسخ الكتب فنسخ كتابه على نهج الكتب القديمة. لكن المهم أن الكتاب كان أهم مصدر سوداني عكس حياة المجتمع في التاريخ الوسيط فقد شكل الواقع الثقافي والاجتماعي السياسي فهو دراسة ميدانية نابعة من المجتمع وما يحدث فيه في السياق الاجتماعي والثقافي .

الخاتمة: يعتبر كتاب ودضيف الله من الكتب السودانية النادرة التي وثقت لتاريخ السودان الوسيط فالكتاب عكس واقع المجتمع السوداني والفكر الصوفي المتواجد، فترجم للعلماء الوافدين للسودان وطرق تعاليم للناس فلا يمكنن ان نقارن بين عصر كان يردح في الجهالة والتخلف بواقع اليوم ولا الفكر السابق بالفكر اليوم فلكل مقام مقال . لكن يظل كتاب الطبقات هو المصدر الأساسي لكل دارس لواقع السودان في العصر الوسيط.

المصادر والمراجع

[1] – محمد صالح محي الدين، مشيخة العبدلاب في حياة السودان السياسية ، دار الفكر بيروت ،الدار السودانية لكتب، الخرطوم، 1973م ،ص19

[2] احمد شوقي ننبين دراسات في علم المخطوطات والبحث الببليوغرافي، ط2، مراكش، 2004م ، ص25

[3] – جاك لومير ،مدخل الى علم المخطوطات، ترجمة احمد شوفي بنبين المطبعة الوطنية ،2006م ،ص29

[4] – عبد الكريم عوفي ، تراثنا بين الأمس واليوم محاضرة مقدمة لملتقى التراث ،مدينة دارار نوفمبر 1998م

[5] – سورة العنكبوت، الآية 48

[6] - عبد المجيد عابدين ، تاريخ الثقافة العربية في السودان ،ط1، دار الثقافة ، بيروت،1953م

[7] – محمد صالح محي الدين ، مشيخة العبدلاب ، دار الفكر ، الدار السودانية، بيروت ، الخرطوم1972م ص422

[8] – ممد صالح محي الدين ، مرجع سابق ، ص423–425

[9] – الشاطر بصيلي عبد الجليل ، مخطوطة كاتب الشونة في تاريخ السلطنة السنارية والإدارة المصرية ، جمعها احمد بن الحاج ابو علي، الدار المصرية للكتب، الدار السودانية للكتب،2009م، ص5

[10] - محمد صالح محي الدين ، مصدر سابقأص377

[11] – عون الشريف قاسم حلفاية الملوك التاريخ والبشر ، ط1، دار جامعة امدرمان الإسلامية للطباعة والنشر السودان 1988م ص14–15

[12] محمد ابراهيم ابو سليم ، ادباء وعلماء ومؤرخون في تاريخ السودان ، ط1، دار الجيل ، بيروت ،1991م، ص75

[13] - عون الشريف القاسم ، مرجع سابق ، ص16

[14] - احمد ابراهيم ابوشوك ، السودان السلطة والتراث مركز عبد الكريم مرغني امدرمان السودان ، 2012م، ص263

[15]–محمد ابراهيم ابو سليم ، مرجع سابق ، ص75

[16] محمد ود ضيف الله كتاب الطبقات تحقيق ابراهيم صديق احمد القاضي ، مكتبة الثقافة ، بيروت، 1927، ص4–5

[17] -محمد ود ضيف الله ، مصدر سابق تحقيق ابراهيم صديق احمد القاضي،ص8

[18] - عبد المجيد عابدين، مصدر سابق ،ص 310

[19] - عبد المجيد عادين ، مصدر سابق ،ص310

[20] - الأمين حاج محمد احمد، وقفات مع كتاب ود ضيف الله، ط1، مركز الحق للطباعة والنشر ، بيروت، 2000م س11

[21] - محمد ود ضيف الله ، مصدر سابق تحقيق ابراهيم صديق احمد القاضي،ص8

[22] - محمد ود ضيف الله ، مصدر سابق ، ص5

[23] –محمد بن ضيف الله، مصدر سابق ، ص5

[24] – محمد ود ضيف الله ، مصدر سابق، ص4

[25] عبد المنعم عجب الفَيا، طبقات ود ضيف الله والريادة في لغة السرد المعاصر،سودانيل يوم 07 - 08 – 2017

https://www.sudaress.com/sudanile/100719

[26] – محمد ابراهيم ابو سليم ، مرجع سابق ، ص75

[27] محمد ابراهيم ابو سليم ، مرجع سابق ، ص75

[28] - شيخ الأمين حاج محمد، مرجع سابق ص11

[29]– محمد ودضيف الله ، مصدر سابق، ص4

[30] شرف الدين الأمين عبد السلام كرمات الأولياء ، تحرير الأمين ابو منقة ، المكتبة الوطنية، السودان، 2006م، ص40

[31] عبد المجيد عابدين مرجع سابق ،ص77

[32] - غازي صلاح الدين العتباني، صورة الزعيم الخارق ونفوذها على الحياة العامة السودانية قراءة سريالية لعالم ود ضيف الله جريدة الرأي العام، السودان يوم 02 / 12 / 2007م

[33] - احمد ابراهيم ابوشوك، مرجع سابق،ص268

المصادروالمراجع

1-سورة العنكبوت، الآية 48

2-احمد ابراهيم ابوشوك،السودان السلطة والتراث،مركز عبد الكريم مرغني، امدرمان،السودان، 2012م.

3-احمد بن الحاج ابو علي، الدار المصرية للكتب، الدار السودانية للكتب،2009م.

4-احمد شوقي ننبين دراسات في علم المخطوطات والبحث الببليوغرافي، ط2، مراكش، 2004م

5- الأمين حاج محمد احمد، وقفات مع كتاب ود ضيف الله، ط1، مركز الحق للطباعة والنشر ، بيروت، 2000م

6-الشاطر بصيلي عبد الجليل ، مخطوطة كاتب الشونة في تاريخ السلطنة السنارية والإدارة المصرية ،

7- شرف الدين الأمين عبد السلام كرمات الأولياء ، تحرير الأمين ابو منقة ، المكتبة الوطنية، السودان، 2006م،

8-عبد المجيد عابدين ، تاريخ الثقافة العربية في السودان ،ط1، دار الثقافة ، بيروت،1953م

9-عبد الكريم عوفي ، تراثنا بين الأمس واليوم محاضرة مقدمة لملتقى التراث ،مدينة دارار،نوفمبر 1998م

10- عون الشريف قاسم حلفاية الملوك التاريخ والبشر ، ط1، دار جامعة امدرمان الإسلامية للطباعة والنشر السودان 1988م

11- محمد صالح محي الدين،مشيخة العبدلاب،دار الفكر ،الدار السودانية،بيروت،الخرطوم،1972م

12_محمد ابراهيم ابو سليم ،ادباء وعلماء ومؤرخون في تاريخ السودان ، ط1، دار الجيل ، بيروت ،1991م،

13-محمد ود ضيف الله كتاب الطبقات تحقيق ابراهيم صديق احمد القاضي ، مكتبة الثقافة ، بيروت، 1927م

14-جاك لومير ،مدخل الى علم المخطوطات، ترجمة احمد شوقي بنبين المطبعة الوطنية ،2006م

15 -غازي صلاح الدين العتباني، صورة الزعيم الخارق ونفوذها على الحياة العامة السودانية قراءة سريالية لعالم ود ضيف الله جريدة الرأي العام، السودان يوم 02 / 12 / 2007م

16-عبد المنعم عجب الفَيا،طبقات ود ضيف الله والريادة في لغة السردالمعاصر،سودانيل يوم07 / 08 / 2017..

https://www.sudaress.com/sudanile/100719